عنوان المحاضرة: طبيعة السرد عند الجاحظ (البخلاء نموذجا)

سرد الجاحظ: المصادر والغايات

تمكن الجاحظ من خلق نموذج سردي يتجاوز فيه ما كان سائدا من ناحية تعددية النظرة وتنوع الصوت ومن ناحية غاية السرد وفعله، فهو لا ينكر مصادره التي يستعين بها في البيان والتبيين، وغيرها من المؤلفات لأنه لا يريد إقحام نفسه فيضل متخفيا خلف المنقول والموضوع والمنحول، يراوغ بهذا الصوت متنقلا بين المكتوب والمسموع والمروي والمشاهد[1]، فتنشأ السلطة التي يمارسها على المتلقي لأنه يمتلك المعلومة وله حرية التصرف فيها انطلاقا من علاقته بالأحداث المروية وموقفه منها وهدفه من روايتها، فينتج نظاما مخصوصا هو الشكل السردي.

ويصعب تحديد مواصفات الكتابة عنده، فهو يتوجه برسائله إلى الخاصة لكنه يبتغي في كثير من المكتوب أيضا بلوغ العدل مراوغا ومنحرفا عن المباشرة والتصريح من جانب ويحيل على المدون والمترجم من جانب آخر[2]، ليستجلب عادات ملوك الفرس أو حكمة الهند ومنطق الإغريق إلى السلطة العباسية ويعمل على التأسيس لمدنية الحياة وحضريتها.

كما لم يفرق الجاحظ بين مصطلحات وظفها في كتبه وخاصة البخلاء مثل النادرة والحكاية والحديث والخبر والقصة إلا أنه يمكن تمييزها من مصادرها ورواتها ومنشئيها وفاعليها، فثمة تداخل بين القاص والمكدي والمحتال واللص تجتمع كلها على المحاكاة والتمثيل والاسترضاء والخداع والحيلة في مسرح هو الشارع أو السوق أو المسجد..

نص البخلاء:

يرى العديد من الدارسين أن نص البخلاء يتكون من قصص مشهدية صورت فيها شخوص بسلوكها، وأنماط تصرفها وتعاملها وأخلاقها، وفصلت دقائق نفسياتها، فراعى المؤلف تصوير باطنها بدقة، كما راعى تصوير ظاهرها، وطغت أعماق الحياة النفسية والاجتماعية لكل شخصية على سطحها الخارجي، فانعكست في حركاتها وتصرفاتها وطريقة لبسها ومعيشتها وفي تحليلها للحياة، وتعاملها مع الآخرين. وكان الجاحظ في كل ذلك مصور أنماط بشرية ناجح، ومحلل دقيق، وخبير بالحياة يكثفها في لقطات، مسجلا سخريته ونقده وموقفه من إنسان عصره.[3]

---

[1] محسن جاسم الموسوي، سرديات العصر العربي الاسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1997،ص 55.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] علي بن تميم، السرد والظاهرة الدرامية، دراسة في التجليات الدرامية للسرد العربي القديم، المركز الثقافي العربي، ط1،الدار البيضاء، ص95 و96.

وتتشكل عناصر أساسية في حكايات الجاحظ عامة وفي حكايات البخلاء انطلاقا من قدرته على تعمق النموذج الإنساني، ورسمه دون تعصب له أو ضده ثم المنطق الذي يمنحه للشخصيات المتقابلة أو المتناقضة، فيبدو كل منهما صاحب حجة يحاول أن تكون مقنعة، وتلك الفكاهة العميقة التي تنجم عن ذكاء وتجربة ومعرفة بالنفس الإنسانية وهي فكاهة متحضرة استلهمت تجربة التقاء الثقافات، ثم انصهارها وانسجامها في حضارة إنسانية عريقة....

يتضمن الكتاب مقدمة شرح فيها المؤلف نفسية البخلاء واحتجاجهم للاقتصاد في تصرفاتهم، وأتبعها برسالة لسهل بن هارون في الدفاع عن مذهبه في البخل، ثم أتبعها بالحديث عن أهل خراسان لشهرتهم بالتقتير، وانتقل بعدها للحديث عن أهل البصرة من المسجديين ويتوالى بعدها تقديم النوادر والقصص المتعلقة بالبخل، ثم يورد رسالة أبي العاص الثقفي في ذم البخل ومدح الكرم، وجواب ابن التوأم على رسالة الثقفي، وينهي كتابه بذكر أطعمة العرب.[1]

مكونات الخطاب السردي في البخلاء:

1- الزمن:

يرى جينات أن هناك نوعين من الزمن يتعلق الأول بالمتن وأحداث القصة ويتعلق الثاني برواية الأحداث، ويتجلى الزمن في حكايات الجاحظ عبر هاتين التقنيتين، حيث يغلب فيها بروز صوت الراوي منذ البداية من خلال عرضه للسند الذي اعتمده أو من خلال ما عاينه وينسحب تدريجيا ليفسح المجال أمام شخصيات الحكاية لتتولى مهمة السرد.

كما تميز الزمن في البخلاء بالتنوع والاختلاف من قصة إلى أخرى، وتتشكل وفق مقتضيات السياق، ويراعى عموما التسلسل الزمني في القصص من خلال الاعتماد على الوقفات والمشاهد الوصفية والحوارية، فجاء الوصف استطراديا دقيقا تمركز في الغالب على وصف المواقف والأحداث والأشياء والأشخاص ونزعاتهم النفسية، أما وصف المكان فكان أقل ورودا واكتفى فيه الجاحظ بوصف الأماكن العامة مثل المسجد باعتبارها مسرحا للأحداث. وقد نوع الجاحظ التقنيات بين استرجاع وتسريع، وإبطاء السرد مرة وتعجيله مرة أخرى، فيكثر من الاسترجاع خاصة في القصص المركبة، لأن الحكايات تحدث قبل زمن الحكي باعتبارها تعود جميعا أو على الأقل توحي بواقعيتها وانتمائها إلى فن الرواية العربي (رواية الأخبار)، وأغلب الاسترجاعات الموظفة تتمحور حول استذكار أحداث أو مواقف أو أحداث، وتراوح الزمن بين الماضي والحاضر والمستقبل.

2- الصيغة:

[1] عمرو بن بحر الجاحظ، البخلاء.شرحه وعلق عليه: محمد التونجي، دار الجيل ، ط1، بيروت، 1993.

يطغى العرض المشهدي في البخلاء، فتكثر المعلومات والتفاصيل، أكثر مما نجد في السرد الإخباري الخالص، الذي ينزع عموما إلى ذكر الحدث واختصار جزئياته بالاقتصار على الجانب الحدثي/الخبري فيه، كما أنه معيار لقياس المسافة التي تفصل الراوي عما هو بصدد روايته، وتكاد الأفعال في البخلاء تقتصر على الأقوال، فالشخصيات تلتقي في مكان ما وتتبادل أطراف الحديث، وعادة ما يكون موضوع النقاش أو الحوار هو الاقتصاد والتدبر والبحث في سبله والأمثلة على ذلك كثيرة، منها قصة أبي سعيد المدائني مع المسجديين، يقول: "..وكانت له حلقة يقعد فيها أصحاب العينة والبخلاء الذين يتذاكرون الإصلاح. فبلغهم أن أبا سعيد يأتي الحربية في كل يوم ليقتضي رجلا..."[1] وتنشأ بعدها حوارية كل طرف فيها يسعى لتقديم الحجة، فيكون السرد متباطئا في الغالب الأعم.

3- الراوي:

تنوعت وضعية الجاحظ فيما رواه في البخلاء بين مراقبة الأحداث من الخارج، ورواية هذه الأحداث من باب الشهادة، أي النقل عن غيره، مثل قوله: "وحدثني إبراهيم بن السندي قال: كان على ربع الشاذروان شيخ لنا من أهل خراسان، ..."[2]

أو قوله في حكايات المسجديين وحكاية مريم الصناع وحكاية معاذة العنبرية وغيرها،

"حدثني جعفر بن أخت واصل، قال.."[3]

ومراقبة الأحداث وتحليلها من الداخل ونقلها بوصفه حاضرا إن لم يكن بطلا فيها، وهو حاله في حكايات أخرى كثيرة، مثل قصة أبي جعفر حيث يقول: "ولم أر مثل أبي جعفر الطرسوسي، زار قوما فأكرموه..."[4]

وقوله في قصة الحزامي: "وأما أبو محمد الحزامي ...وإنه رآني مرة في تشرين الأول، وقد بكر البرد شيئا.."[5]

وقوله في حديث خالد بن يزيد: " وهذا خالد بن يزيد مولى المهالبة، وهوخالويه المكدي، وكان قد بلغ في البخل والتكدية، وفي كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها أحد، وكان ينزل في شق بني تميم فلم يعرفوه.."[6]

وبالتالي تتعدد مستويات السرد في البخلاء، لكنها لم تتجاوز هذين المستويين في كثير من الحالات، بمعنى أنه إما أن يكون قد شهدها وكان بذلك مصدرها الأول، وإما أن يكون قد

---

[1] الجاحظ، البخلاء، ص 53 وما بعدها.
[2] المصدر نفسه، ص26.
[3] المصدر نفسه، ص221.
[4] المصدر نفسه، ص 100.
[5] المصدر نفسه ص 101.
[6] المصدر نفسه، ص 80.

سمعها ممن شهدوها، وبالتالي لم يكن المصدر بعيدا جدا زمنيا أو مكانيا، ذلك أن المسرودات في الكتاب في عمومها معاصرة لرواتها.

وعليه فالراوي في البخلاء شخصية محورية لا غنى عنها تتميز بالكثير من الميوعة والقدرة على الحركة وتبديل المواقع دون قيد أو شرط، هذا التعدد في المواقع وزوايا استحضاره في البخلاء منحه حرية وحركية في أغلب الأحيان ليكون صانع الحدث أو مساهما فيه بنسبة أو بأخرى.

وبذلك تتنوع الرؤية من قصة لأخرى، مع إمكانية تنوعها في القصة الواحدة (المركبة)، وقد سيطرت الرؤية من الخلف عموما في المتن مما يبرز سيطرة الراوي على النصوص (راو عليم).